المحاضرة التاسعة

٢- الكامل للمبرد

محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه الكامل ،و المذكر والمؤنث، و المقتضب.

قال أبو العباس: من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفخم وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه، كما قيل: لمحة دالة.

وقد تتلمذ المبرد على الجاحظ ، فكان يجلس اليه ويستمع منه ويروي عنه، وقد كان واسع الاطلاع على الكتب شديد الحرص على اقتنائها، وبعد أن صار المبرد امام النحويين البصريين بعد المازني تتلمذ عليه نفر ممن ذاع صيتهم في الدراسات النحوية واللغوية فيما بعد، ومنهم الزجاج وابن السراج والاخفش الأصغر وغيرهم.

وقد اتفق هؤلاء جميعا على ان المبرد وكان يمتاز بغزارة العلم، وفصاحة اللسان، وحلاوة المخاطبة ووضوح الشرح، والى جانب هذا كله كان يكثر من حفظ الشعر ذواقا له.

واذا كان الجاحظ قد اكتفى بعنوان كتابه(البيان والتبيين) ليكون دالا على الموضوع الذي من أجله ألف كتابه، فإن المبرد قد قدّم لكتابه بمقدمة موجزة ولنها توضح على وجه التحديد مادة الكتاب والغرض من تأليفه، فقد قال: (هذا كتاب ألفناه، يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر موصوف، ومثل سائر ، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ، والنية فيه ان نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، ومعنى مستغلق،...)

ومعنى هذا أن المبرد قد أتى بالنصوص المختارة في كتابه لتخدم غرضا لغويا أو نحويا، وهو مجال اهتمامه الأول كما ذكرنا، وهذا يشير الى أن تخصصات علماء هذا العصر كانت قد تحددت وكان كل أديب يعرف مجال تخصصه.

فمنهج المبرد أن يأتي بالنص، كأن يكون حديثاً أو آية أو بيت شعر ، ثم يأخذ في شرحه لغوياً ونحوياً، مستشهداً في ذلك بروائع من الشعر والنثر، وبهذا يمكننا أن نلخص محتوى الكتاب بما يلي:

١-مختارات من الشعر والنثر والأمثال والحكم.

٢-ايضاحات لغوية.

٣-شروح نحوية.

٤-لمحات نقدية.

نبذ من أقوال الحكماء

قال أبو العباس(المبرد) قال بعض الحكماء: من أدب ولده صغيراً سر به كبيراً وكان يقال: من أدب ولده أرغم حاسده.

وقال رجل لعبد الملك بن مروان إني أريد آن أسر إليك شيئاً، فقال عبد الملك لأصحابه: إذا شئتم، فنهضوا، فأراد الرجل الكلام، فقال له عبد الملك قف، لا تمدحني، فأنا أعلم بنفسي منك، ولا تكذبني، فإنه لا رأي لمكذوبٍ ؟ ولا تغتب عندي احداً. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في الانصراف؟ قال له: إذا شئت.

مكانة الكامل

كتاب الكامل أثر خالد من آثار المبرد، ومعلمة كبيرة لمعارف اللغة العربية وعلومها وآدابها وهو يحتل مكانة ممتازة بين مؤلفات العلماء في عصر المبرد وفيما بعده من العصور. وهو

خير ما كتب من هذا النوع في تأريخ الأدب العربي كله، منذ البداية إلى يومنا هذا. وقد ترك الكتاب تأثيراً فوق المتصور في لغة العرب شرقا وغرباً.

الكامل والأندلس

١ – اهتمامهم وعنايتهم بالكامل

كتاب الكامل للمبرد من الكتب، التي حازت إعجاب الأندلسيين، وعنايتهم، فبذلوا جهدهم في دراستها، قرائتها، وروايتها، وانتشارها، وكتبوا لها شروحا أو اختصروها، أو علقوا عليها، وأصلحوا من أخطائها، ونبهوا على أغلاطها، وكفى شاهدا على إعجابهم بالكامل، وعنايتهم به أن جميع النسخ للكامل – مخطوطها ومطبوعها – الموجودة المحفوظة في العالم، المعروفة المكتشفة إلى الآن برواية على بن سليمان الأخفش من تلاميذ المبرد

وقد كان كتاب الكامل للمبرد له انتشارا واسعا، وقبولا عاما عند كافة الطبقات الأندلسية، وكانت النسخ المتداولة عندهم كثيرة جدا، وقد قال المؤرخ العلامة أبن خلدون: " وسمعنا شيوخا في مجالس التعليم. أن أصول هذا الفن " علم الأدب " وأركانه أربعة دواوين، وهي أدب الكتاب لأبن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكانت البيان والتبيين للحاجظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة، فتبع لها، وفروع عنها.

ويعد الكامل خير مؤلفات المبرد، وأحسنها، وأغرزها مادة، وفيه من المعلومات التي لاغناء عنها لأحد، والتي يحتاج إليها صاحب كل علم وفن من التأريخ، والحديث، والأنساب والأخبار، والأدب، واللغة، وغيرها. ولا يمكن لأندلسي يحضر درس المبرد فلا يأخذ عنه الكامل.

نموذج من الكتاب

للفرزدق حين طلق النوار

وحدثني بعض أصحابنا عن الأصمعي عن المعتمر بن سليمان عن أبي مخزوم راوية الفرزدق، قال: قال لي الفرزدق يوماً: امض بنا إلى حلقة الحسن، فإني أريد أن أطلق النوار، فقلت: إني أخاف عليك أن تتبعها نفسك، ويشهد عليك الحسن وأصحابه، فقال: امض بنا فجئنا حتى وقفنا على الحسن، فقال: كيف أصبحت يا أبا سعيد؟ فقال: بخير، كيف أصبحت يا أبا فراس؟ قال: تعلمن أن النوار مني طالق ثلاثاً، فقال الحسن وأصحابه: قد سمعنا، قال: فانطلقنا، قال: فقال لي الفرزدق: يا هذا، إن في قلبي من النوار شيئاً، فقلت: قد حذرتك، فقال:

ندمت ندامة الكسعي لما ... غدت مني مطلقةٌ نوار

وكانت جنتي فخرجت منها ... كآدم حين أخرجه الضرار

ولو أني ملكت يدي ونفسي ... لكان علي للقدر الخيار

قال الأصمعي: ما روى المعتمر هذا الشعر إلا من أجل هذا البيت.